رئيس التحرير
والمدير المسؤول
الدكتور سهيل ادريس

Rédacteur en chef et directeur
SOUHEIL IDRISS

الآداب

مجلة شهرية تعنى بشؤون الفكر

بيروت
ص.ب. ٤١٢٣ — تلفون ٣٢٨٣٢
AL-ADAB REVUE MENSUELLE CULTURELLE
BEYROUTH. LIBAN B.P. 4123
Tél. 32832

العدد الحادي عشر
تشرين٢ (نوفمبر) ١٩٥٧
السنة الخامسة

No. 11 Nov. 1957
5ème année

خواطر عربية أمام القمر الجديد

في الشؤون العربية

بقلم رئيف خوري

وقفت عند كلمة قرأتها منذ ايام لفقيد الادب العربي نجيب الحداد يعلن فيها: « ان العلم وجهل الاستبداد لا يجتمعان والمدنية ووحشية الاستعباد لا يأتلفان ».

فقلت حبذا لو صحت القاعدة! العلم وجهل الاستبداد لا يجتمعان، والمدنية ووحشية الاستعباد لا يأتلفان؟ وأنى؟ وكيف؟ وماذا يصنع اذن اسياد الحضارة وسباق البشرية في مضمار الثقافة، منذ الحرب الاخيرة، ولا اذهب الى ابعد؟

ماذا يصنعون سوى ان يبشروا في كل يوم من بني منزلا، او حرث ارضا، او كتب كتابا، او ربى طفلا، بانهم قد بلغوا من العلم مبلغا يستطيعون معه ان يجعلوا من كل ما عمل، أو حلم بان يعمل، هباء منثورا ويحققوا العمران ويريحوا البشرية من عناء وجودها!

العلم قد هشم الذرة. العلم قد سخر من الطاقة والآلات ما يستطيع به ان يحول مجاري الانهر، ويصفي مياه الابحر، ويستخرج ما في المحيطات من ذخائر وكنوز، ويجعل من القطبين، ومن الغابات والآجام غير المأهولة، مساكن صالحة لعباد الله، ويسمو بانتاج الغذاء والكساء الى ما يسد به حاجة كل انسان ويكفل له الحياة المطمئنة الرافهة المثقفة، وينمي قواه المبدعة فكرا وعملا الى اقصى غايات نموها. العلم قد اشرف على الساعة التي يتحرر فيها الانسان من القيود التي تشده الى هذا الكوكب، الارض، لينتقل الى الكواكب الاخرى يعمرها ويفيد منها، ويصير ما كان يحسب من هذيان المحمومين حقائق كلها يقين!

هذا ما فعله العلم. ومع ذلك فما زال في الارض، في كنف هذا العلم، وهذه المدنية، جياع لا يظفرون بلقمة، وعراة لا يجدون السبيل الى خرقة، وعطاش حرموا حتى قطرة من المعرفة. ما زال في الارض امم وشعوب غريبة في اوطانها يغزوها الغزاة، وينهبها الطغاة، ويتحكم في رقابها العتاة.

ومن عجيب امر هذا العلم، وهذه المدنية، انك ترى العلماء والمتمرنين جادين في البحث عن دواء يقتل بعوضة مؤذية، ويقيموا المختبرات والصيدليات والمستشفيات ودور النقاهة، لينقذوا عليلا، او يطيلوا اياما في عمر مريض، او يخففوا من مصيبة معوه او مشوه، وفي الوقت نفسه يكشر بعضهم في وجه بعض كالذئاب ويتبجحون بوسائل التدمير والافتراس ويتنافسون في افتكها واضراها.

اذا فالعلم والاستبداد يجتمعان، والمدنية ووحشية الاستعباد يأتلفان. والمنطق والحماقة والذكاء والغباوة يتجاوران ويتخالطان.

ولكن ماذا ترانا نفعل؟ هل نكفر بالعلم والمدنية وبالمنطق والذكاء؟

اقول: لا! لا نكفر بالعلم والمدنية! لا نكفر بالمنطق والذكاء! بل فلنؤمن بها رغم كل شيء، لانها وان هددت العمران والبشرية تبقى هي السبيل الى حفظ العمران والبشرية وتعبر الطريق امامهما الى ما هو افضل واجمل واكمل.

كثيرون تشاءموا، واصطبغ في نظرهم الوجود بلون اسود، حين سمعوا حديث القنابل الذرية التي تملكها الولايات المتحدة الاميركية، وتستطيع بها ان تدمر المدن وتزهق ارواح الملايين في لحظة عين. ولم ينخفض تشاؤم المتشائمين حين ايقنوا ان الاتحاد السوفياتي يملك من هذه القنابل ما تملكه الولايات المتحدة وقالوا: بئس المصير بين الجبارين! ثم كان حديث الصواريخ، فاذا المتشائمون لا يخف عنهم ثقل الكابوس وما اظنهم قد سعدوا اليوم بهذا القمر الاصطناعي، الذي سبق اليه السوفيات وارسلوه يدور حول الارض، ويشرف عليه اشرافا قد يستطيع به ان يمطر ما شاء من كوكبنا قنابل تحرقه احراقا.

حبذا لو كان هذا القمر من نوع آخر، لسمعنا فيه بعض هؤلاء المتشائمين ولو قصيدة غزل!

الا ان جميع هذه الاسباب التي تغرق المتشائمين في الجزع والقنوط، وتقنعهم بان الحرب واقعة لا محالة، هذه الاسباب نفسها جديرة بان تدعو الى تفاؤل صحيح متين.

لم كانت كل هذه الفترة من الحرب الباردة ضرورية لو كان باستطاعة من يريدون الحرب ان يقدموا حقا على حرب

كبرى حارة ؟ لم هذا الاحجام ، مع هذه التلميحات والتصريحات المتوالية بالتفوق على العدو والقدرة على سحقه؟

لست اكتب مستفزا من يريدون الحرب . وانما اكتب للمتشائمين مقنعا اياهم بان من يريدون الحرب غير موقنين الا بنتيجة واحدة : انها لن تسفر الا عن دمار يجهلون ما يكون نصيبهم منه،ولا يعلمون هل يفي به النصر، ان انتصروا.

ولذلك هم يكتفون بالحرب الباردة ، يقفون عند حد التهديد ، ولا يجسرون ــ اذا جسروا ــ الا ان يحركوا حروبا صغيرة موضعية . انهم يسوّفون ريثما يتم لهم ذلك اليقين الذي يفتقرون اليه ، اليقين ان النصر سيكون لهم !

وفي زعمهم ان هذا اليقين يمكن ان يتم لهم برغم ارتياع الشعوب من الحرب وتوقها الى السلام . يمكن ان يتم لهم هذا اليقين في زعمهم بوسائل الابادة الشاملة التي يهيئها لهم العلم ، وبها يستطيعون ان يسبقوا الى الضربة القاصمة ، والضربة لمن سبق .

على انهم قد فاتهم شيء ، ان كان فاتهم . فهذا العلم نفسه قد اصبح امنع سر دون ذلك اليقين الذي يلتمسون. العلم قد اثبت انه لم يبق سرا محتكرا لاحد . فوسائل الابادة الشاملة ، التي يهيئها ، اصبحت تملك منها الدول الكبيرة القادرة على الانفاق ، مقادير ، ربما تفاوتت ، لكنها تتقارب من ناحية انها تكفي لجعل الحرب صفقة خاسرة حتى مع النصر ان كان ثمة من نصر.

وهذا في رأينا هو مغزى ظهور القمر السوفياتي في الآونة الراهنة . ان الاتحاد السوفياتي ان لم يكن متفوقا بوسائل الابادة الشاملة ، فهو ليس متخلفا . وان لم يكن النصر نصيبه يقينا فهو قادر ان لا يجعله من نصيب أحد.

وهكذا يبعد القمر السوفياتي الحرب ، ويقصيها عن المحتمل ، او هو يثبت ان نصرا يُنال على الاتحاد السوفياتي بمجرد التفوق في وسائل الابادة العلمية مستحيل .

وهنا ، قد يقال لنا اننا نتكلم وكأننا واثقون من ان الاتحاد السوفياتي نفسه لا يقدم على الحرب ، حتى ولو غره من نفسه شعور بالتفوق في وسائل الابادة على خصومه .

والواقع اننا نثق مثل هذه الثقة . الاتحاد السوفياتي لن يقدم بحال على حرب يكون هو بادئها ، لان الاتحاد السوفياتي يسري عليه ما يسري على غيره وهو ان العلم لا يطيق ان يبقى سرا محتكرا لاحد، وان وسائل الابادة العلمية التي تملكها الدول الكبرى كافية، وان تفاوتت، لجعل الحرب صفقة خاسرة ، جنونية ، انتحارية ، حتى مع النصر !

وثمة سبب آخر مهم ، ان الاتحاد السوفياتي قادر ، اذا استمرت الظروف والاحوال ، ان يحرز نصرا من طريق غير طريق الحرب .

كثيرون لا يحبون ان يروا الحقائق الصارخة . ويفسرون هذا الرأي مني بانه بقية لاشعورية من بقايا احتكاكي بالشيوعية في يوم من الايام . ويرضيهم هذا التفسير ويغنيهم . ولست اكلف نفسي عناء دفعه ، فاذا كان جواهر لال نهرو ، وجمال عبدالناصر ، وشكري القوتلي ، وخالد العظم ، وحميد فرنجية ، وعبدالله اليافي ، وصائب سلام ، منجرفين بالشيوعية حقا وجدا في نظر هؤلاء ، فما اراهم اذا رموني بالشيوعية مسرفين ! ولكن ما بال هذا المزاح يستوقفنا ! افضل لو نبحث كيف يتسنى للاتحاد السوفياتي ان يحرز من غير طريق الحرب نصرا يكفيه .

ينبغي للانسان ان يكون مصابا بالعمى ، او بالتعامي وهو شر من العمى ! حتى لا يبصر ان الاتحاد السوفياتي يقف في سياسته الخارجية موقفا ادنى الى الحق والمنطق والى ادراك الاماني القومية التي تجيش بها جماهير الشعوب العربية ، بينما تسلك الولايات المتحدة زعيمة الجبهة المناوئة للاتحاد السوفياتي ، مسلكا ينبو عن الحق الصريح والمنطق البدهي .

تتمسك الولايات المتحدة باسرائيل التي قامت على محو الوجود العربي في جزء عزيز من وطننا ، واعتدت امس على مصر العربية ، وما زالت تضمر نيات الاعتداء على باقي البلاد العربية ، ولاسيما الاردن وسوريا ، ثم تطمع الولايات المتحدة بان يصالح العرب اسرائيل ويسيروا معها في جبهة مضادة للاتحاد السوفياتي !

ولا يبدو على الولايات المتحدة سوى موقف المتفرج حين تتحرش تركيا بسوريا ، ولا تتحمس الولايات المتحدة لتقول شيئا الا حين يحذر الاتحاد السوفياتي تركيا من عاقبة مغامراتها الوخيمة على نفسها قبل غيرها ، فتصرح الولايات المتحدة بانها تنفذ عندئذ تعهدها بمساعدة تركيا ، اي تحميها اذا اعتدت ، ثم تريد الولايات المتحدة ان تضمنا اليها والى تركيا في جبهة لمعاداة الاتحاد السوفياتي !

وتعرض الولايات المتحدة معاونتها المالية والاقتصادية للبلدان المتخلفة ، فاذا طلبت منها مصر مثلا ، بعض هذه المعاونة لتبني سدها العالي ، الزمتها ان تتقيد بشروط سياسية تؤدي بها الى المشاركة في حرب على الاتحاد السوفياتي ، فلا يختلف موقف الولايات المتحدة عمن يخير انسانا ليبني مطبخا في بيته ، ثم يكلفه ان يبذل له بيته كله ليجعله تحت القنابل !

مرحى لهذا الحق ! مرحى لهذا المنطق ! لسنا والله نعلم اي معجزة يمكن ان تحققه ! لتطمئن الولايات المتحدة انها ستوفق الى اصطناع القمر قبل ان تقنع عربيا ، حتى من المكسوبين لها ، بهذا « الحق » و « المنطق » .

ينبغي للولايات المتحدة ان تتخلى عن اسرائيل ، ان تعترف بالاماني القومية العربية وان لا تعرقل سير هذه الاماني نحو الاستقلال والسيادة التامة ، والاتحاد والحرية والرفاهية .

ينبغي للولايات المتحدة ان تكف عن تشجيع عناصر الانقلاب والرجعية ، وعمال الفتنة الاثيمة في البلاد العربية . ينبغي لها ان تمسك عن تحريك دماها : اسرائيل وتركيا ، للاعتداء او التفكير في الاعتداء . ينبغي لها ان تستعمل نفوذها مع حلفائها الفرنسيين في الجزائر والبريطانيين في شبه الجزيرة العربية ، ليسلموا بالواقع ويمنحوا الحق شعوبا هضموا حقها طويلا . وينبغي لها ان تبذل معاونتها المالية والاقتصادية لمن يريدها خالصة من القيود السياسية .

هذا ، والا فلن تحقق الولايات المتحدة من المعجزات غير زيادة في تمكين الصداقة العربية السوفياتية ، وعلى حساب الولايات المتحدة نفسها ! وسيتنكر لها حتى اصدقاؤها اما راضين واما كارهين ، او هم سيجدون انفسهم في عزلة تامة عن الشعوب العربية .

ان كل تحويل في مجرى السياسة العربية من خط الحياد والاستقلال والحرية والاتحاد اصبح مستحيلا ، لانه لن يمكن الا بتدخل عسكري . ومعنى التدخل العسكري اشعال حرب يكون المعتدي فيها هو البادىء بالتدخل العسكري وبالتالي، لا يجد له معتمدا يعتمد عليه سوى وسائل الابادة التي يهيئها له العلم .

ولكن الم نقل ان وسائل الابادة هذه اصبحت بعيدة عن ان تكون سرا محتكرا لاحد بعد ظهور القمر الجديد !؟

رئيف خوري